

"شهابية فؤاد بطرس"

إحتفال تكريمي نظّمته مؤسسة فؤاد شهاب

في 4 تشرين الأول 2016

كلمة الوزير شارل رزق

قيل إنّه كان متشائماً. لكن، رغم تشاؤمه، لم يستسلم يوماً لإسوداد الأيام لاسيما أيام الحرب التي كاد لبنان يغرق فيها ، ولم يتردد في العمل وفقاً لقناعاته المستمدّة من وطنيته الصادقة ورؤياه الواضحة. هو، مع رشيد كرامي وكمال جنبلاط والياس سركيس واحد من الكبار الذين إنقّوا حول الرئيس فؤاد شهاب في أواخر خمسينات القرن الماضي وجعلوا من لبنان دولة سُمّيت "دولة الإستقلال" وكانت إنجازاً سياسياً خارقاً تجاوز بكثير الإصلاحات المالية والإجتماعية والإدارية مثل إنشاء مصرف لبنان والضمان الإجتماعي ومجلس الخدمة المدنية والتفتيش المركزي وسائر المؤسسات التي غلّف بعضها ضباب السنين.

أهم ما قدمته التجربة الشهابية التي كان فؤاد بطرس من أهم أركانها هو إرساء القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها النظام الديمقراطي البرلماني وهي قيام كتلتين سياسيتين عابرتين للطوائف، مثّلت أولاهما الأكثرية الحاكمة وثانيتها المعارضة.

ضمّت الكتلة الأولى المسماة آنذاك "النهج" والموازية للرئيس شهاب سياسيين ينتمون إلى جميع الطوائف كما ضمّت الكتلة المعارضة المسماة "الحلف" سياسيين ينتمون إلى جميع الطوائف أيضاً. فانتظمت الحياة السياسية واستقرت وسارت عجلة الحكم فعرف لبنان عصره البرلماني الذهبي. وليس من باب الصدفة أن يتزامن إنهيار الدولة اللبنانية في السبعينات مع زوال الثنائية السياسية اللاطائفية التي بناها الرئيس شهاب ورفاقه، والتي استبدلت اليوم بانقسام لبنان إلى كتل طائفية مذهبية تحركها قوى خارجية إقليمية ودولية فإنهارت الدولة وتبحر الإستقلال.

إنخرط فؤاد بطرس في العمل الحكومي آتياً من القضاء والمحاماة وأتسم عمله السياسي بتمسكه الصارم بالقانون. كان ذلك في الثلاثين من أيلول العام 1959 يوم دعاه الرئيس شهاب ولم يكن يعرفه فعرض عليه رؤياه وبرنامجه وطلب إليه مشاركته في إعادة بناء لبنان. وسَمَّى فؤاد بطرس هذا اللقاء اللقاء الذي لم ينته، حتى بعد وفاة الرئيس. فانطلقت بعد ذلك مسيرته الحكومية والنيابية، أتوقف هنا عند أهم محطاتها.

فالحكومة الأولى التي كان فيها وزيراً للتربية والتصميم وضعت قانوناً جديداً للانتخاب هو قانون العام 1960 الذي لا يزال ساري المفعول حتى اليوم، فأجريت الانتخابات وخاضها فؤاد بطرس على لائحة الكتائب والطاشناق وفاز عن مقعد الأرثوذكس في دائرة بيروت الأولى. وقد لمع في دوره ككاتب وبرز نشاطه بإنشاء الكتلة النيابية المستقلة التي شكّلت نواة الأكثرية البرلمانية والتي سُمّيت لاحقاً "النهج".

وتجلّت صفاته كرجل دولة في وزارة العدل التي تولاها بعد إنتخابات العام 1960، فبدأ بإنشاء "معهد الدراسات القضائية" لتدريب القضاة وإعدادهم إعداداً علمياً كما هي الحال في الدول الراقية وتعامل بحكمة وشجاعة مع محاكمة المتهمين بالضلوع في انقلاب القوميين في 31 كانون الأول العام 1961. فحرص على إبعاد الروح الإنتقامية التي حاولت بعض المراجع فرضها على القضاة، فلم تُصدر محكمة التمييز العسكرية التي رأسها آنذاك القاضي إميل أبو خير أي حكم بالإعدام.

وعندما انتهت مدّة ولاية الرئيس شهاب استشاره هذا الأخير في مسألة انتخاب خلفٍ له فاقترح بطرس دعم ترشيح شارل حلو الذي تعهد بإكمال المسيرة الشهابية، فانتُخب حلو رئيساً في العام 1964 وهي المرة الأولى التي يَنْتُخب فيها اللبنانيون رئيسهم من دون تدخل الدول الخارجية. وعاد فؤاد بطرس إلى ممارسة المحاماة فازدهر مكتبه إزدهاراً كبيراً قبل العودة إلى العمل الحكومي العام 1968 متولياً لأول مرة وزارة الخارجية التي لا يزال اسمها يتماهى مع اسمه حتى اليوم، إلا أنه خسر مقعده النيابي في إنتخابات 1968 بسبب تخلي رفاقه في اللائحة الإنتخابية عنه.

وفي 28 كانون الأول العام 1968 كان لإعتداء الاسرائيلي على مطار بيروت. يومها، ورغم وجود فؤاد بطرس خارج الحكم، طلبت اليه الحكومة التوجه إلى مجلس الأمن لتقديم شكوى ضدّ إسرائيل فذهب برفقة بيار إده إلى نيويورك حيث تمكنا من الحصول على قرار دولي يدين العدوان على المطار إدانة صريحة.

عاد فؤاد بطرس بقوة إلى الصدارة في عهد صديقه الياس سركيس الذي محضه، فور تولّيه رئاسة الجمهورية العام 1976، ثقته المطلقة وأوكل إليه وزارة الخارجية ونيابة رئاسة الحكومة طيلة عهده، إلى

جانب وزارة الدفاع في القسم الأكبر من ولايته الرئاسية. والحقيقة أنّ فؤاد بطرس كان في عهد الرئيس سركييس أكثر من وزير كان بمثابة نائب رئيس الجمهورية حتى أنّ الياس سركييس لم يتخذ أي قرار ذا أهمية إلا بعد استشارته فيه والعمل برأيه.

كان فؤاد بطرس طوال هذه السنوات المأساوية مثال الوطنية الهادئة والعنفوان العاقل. واجه أخطر التحديات في زمن كانت فيه أرض لبنان عرضة لاحتلالات قوات مسلحة خارجية فلسطينية وإسرائيلية وسورية ناهيك عن الفوضى التي لم تتورّع بعض الفئات الميليشيوية برعونتها عن نشرها.

والمثال عن هذه الرعونة ما واجهه فؤاد بطرس عند توليه وزارة الدفاع العام 1977. كان همّه الأول إبعاد المؤثرات السياسية عن الجيش وإعادة قيادته إلى كنف الدولة. فقرّر تعيين قائد جديد غير آبه بالتهديدات السافرة التي وجهتها إليه الفئات المستفيدة من إبقاء الجيش على حاله متوهمة أنها بذلك تثنيه عن قراره. وكان آخر التهديدات وأكثرها فظاعة تفجير منزله الذي نجا منه مع عائلته بإعجوبة. وما زاده هذا الإعتداء الإجرامي إلا عزمًا وتصميمًا، وفرض في النهاية الضابط الذي اختاره هو قائداً للجيش.

في إحدى أسوأ تلك المراحل من تاريخ لبنان الحديث، وقف فؤاد بطرس بجانب الياس سركييس وحافظا معاً بكل ما أوتيا من عزم وصبر على ما تبقى من الدولة التي ساهما مع فؤاد شهاب في بنائها.

كانت سنوات عهد سركييس أشدّ السنوات التي مرّ بها لبنان قساوةً وأكثرها خطورة. فقد تزامن إنتخاب الرئيس مع دخول الجيش السوري لبنان بموافقة الدول العربية والغربية وبرضى إسرائيل الضمني. وشهد لبنان في الأشهر الأولى من العهد هدوءاً أمنياً نسبياً. وفجأة حصل ما لم يكن في الحسبان. ففي ربيع العام 1977 تولّى اليمين الإسرائيلي المتطرف بزعامة مناحيم بيغن وأرييل شارون الحكم بعد إنتصاره في الإنتخابات النيابية، وفي 9 تشرين الثاني أذهل أنور السادات العالم بزيارته إسرائيل. فأفصيت مصر من الجامعة العربية وانضمت سوريا إلى ما سُمّي "جبهة الرفض" إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية التي تقربت منها بعد خلافها معها وانقلبت سياستها في لبنان. وفي المقابل انكشفت أهداف اليمين الإسرائيلي في لبنان مع اجتياح إسرائيل للجنوب في ما سُمّي "عملية الليطاني" التي سرّعت هجرة الجنوبيين الذين اكتظت بهم ضاحية بيروت ، ثم مع إجتياح العام 1982 وسعي إسرائيل إلى التحالف مع قوى داخلية لبنانية بمناسبة الإنتخابات الرئاسية آنذاك. إلا أنّ النتيجة المستدامة لهذا الإجتياح إنّما كانت قيام حزب الله الذي، بفعل المقاومة، أصبح القوة السياسية الأولى في لبنان ولا يزال.

كُتِبَ على فؤاد بطرس أن يعيش هذه التقلبات بل الانقلابات، فمارس الحكم بما أعطي من بعد نظر وخبرة . كان رجل الدولة بامتياز، كان البوصلة التي لم تخطئ المسار مهما اشتدت الأعاصير في زمن أكثر من ضلّوا الطريق حوله. فلا غرو إن انكفأ عنهم وتجنّب العمل الحكومي بعد العام 1982 وعاد إلى دور الزاهد المراقب الذي طالما إستهواه منذ عزلته الأولى في سبعينات القرن الماضي، لكنه لم يبخل في محاوره من طلب محاورته من اللبنانيين والعرب والأجانب وتقديم النصّح لهم، إن نفع النصّح.

حَظِيَتْ بمحبته وثقته منذ شبابي. وهو اليوم كما في الأمس ومهما طالت حياتي شاخصاً أمامي، كُنْتَلَّةً من القيم الأخلاقية والمناقب السياسية، جَمَعَت الوداعة والكبرياء، اللطف والعنفوان، التمسك العنيد بلبنان والإفتاح الرحب على العالم.